الفصل الرابع

الكتاتيب فى الإسلام

نريد أن نقصر الكلام على التعليم الأولى أو التعليم فى الكتاب ، ولا شأن لنا بأنواع التعليم الأخرى ، لأن المؤلف لم يتناولها بالبحث . ولم يكن القابسى مشرعاً فى هذا الفن : بل مؤرخاً وصف ما انتهى إليه حال تعليم الصبيان فى عصره ، من تعود معلم فى الكتّاب يذهب إليه الصبيان فيحفظون عليه القرآن ، ويتعلمون القراءة والكتابة وبعض النحو والعربية والحساب . وكان الحال كذلك فى القرن الثالث الهجرى كما وصف ابن سنحون فى كتابه ، وهو الكتاب الذى أعتمد عليه القابسى كثيراً .

والتعليم ظاهرة اجتماعية ، يخضع كغيره من الظواهر الاجتماعية لقوانين الحياة من النمو والازدهار ، والتراجع والموت .

ولم تنشأ الكتاتيب منذ ظهور الإسلام ، فالمعروف أن بلاد العرب فى عهد النبى لم يكن فيها تعليم منتظم ، والمشهور أن العرب أميون ، ولو أن هناك أخباراً تدل على غير ذلك .

والجديد فى الكتّاب هو صبغته الديمقراطية التى يسرت للصبيان قاطبة قسطاً من التعليم . وهو بهذه الصورة لم يكن معروفاً منذ ظهور الإسلام . لذلك نعود إلى الوراء لنرى متى وكيف بدأ انتشار التعليم فى الكتاتيب على الصورة المذكورة عند القابسى . عن ابن حزم[1] : «مات رسول الله والإسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القُلزم ماراً إلى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس إلى منقطعه ، ماراً إلى الفرات ثم على ضفة الفرات إلى منقطع الشام إلى

(١) ذكرنا هذا النص من قبل ، ونعيده مرة أخرى لأهميته .

بحر القلزم . . وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طى وربية وقضاعة والطائف ومكة . كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب »[٢] ، ثم قال بعد قليل : « ثم مات أبو بكر وولى عمر ففتحت بلاد الفرس طولاً وعرضاً ، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ، ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد ، ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن ، وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقاً وغرباً »[٣] .

فى تاج العروس قصة يتضح منها أن الكتاب كان موجوداً فى زمن عمر ابن الخطاب . قال فى صدد كلمة أبجد : « ويذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لقى أعرابياً فقال له هل تحسن أن تقرأ القرآن ؟ قال نعم . قال فاقرأ أمّ القرآن . قال والله ما أحسن البنات فكيف الأم ؟ قل : فضربه ثم أسلمه إلى الكتّاب ، فمكث فيه ثم هرب ، وأنشأ يقول :

أتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطر متتابعات
كتابَ الله فى رَقّ صحيح وآيات القرآن مفصلات
فخطوا لى أباجاد وقالوا تعلم سعفصاً وقريّشات
وما أنا والكتابة والتهجى وما حظ البنين من البنات

ونستدل من كلام ابن حزم ومن القصة السابقة على أن ظهور الكتاتيب أو المكاتب ليتعلم فيها الصبيان كان فى عصر الفتوحات الإسلامية العظيمة ، وهى الفرس والشام ومصر وجزيرة العرب كلها . أما قبل ذلك فقد كان الإسلام لا يزال يجاهد فى نشر العقيدة فى جزيرة العرب التى كان مركزها مكة ثم المدينة . على حين كان الفرس على حضارة تخالف الحضارة الإسلامية ، وأهل الشام ومصر يتبعون الحضارة اليونانية التى تطورت فى ظل دولة الروم .

فماذا كان حال التعليم فى بلاد العرب وفى الفرس وفى الشام ومصر.

---

(٢) ابن حزم ج ١ ص ٦٦ .

(٣) ابن حزم ج ١ ص ٦٧ .

أما فى داخل بلاد العرب فكانت معرفة الكتابة قليلة جداً. عن البلاذرى فى فتوح البلدان : «دخل الإسلام وفى قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب : عمر ابن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان . .»[٤] .

وعن البلاذرى أيضاً : «كان الكتّاب بالعربية فى الأوس والخزرج قليلاً وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول فجاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون»[٥] . وذكر ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة قول أبىّ بن كعب : «لقد قرأت القرآن وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود فى المكتب»[٦] كل هذا يدل على أن من يعرف الكتابة من العرب كان بضعة نفر . ثم إن النبى كان أمياً لا يعرف الكتابة . والثابت فى كتب السيرة أن النبى افتدى أسرى بدر ، فمن لم يكن له فداء أمره أن يلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة . وفى هذا العمل إيحاء للمسلمين يبين اتجاه النبى إلى محبة التعليم ونشره .

ونخلص من هذا إلى أن الإسلام حين ظهر فى عهد النبى ، لم تكن فى بلاد العرب كتاتيب منتشرة ، يذهب إليها الصبيان . وأن الذين عرفوا القراءة والكتابة هم بضعة نفر من الطبقة الرفيعة ، تعلموا الكتابة بحكم صلتهم بغيرهم من الدول المجاورة كالفرس والروم ، ولحاجتهم إليها فى التجارة . وذلك فى مكاتب معظم الروايات تدل أنها كانت لليهود .

المدارس فى فارس :

كيف يتعلم الصبيان فى فارس ؟ أكانوا يذهبون إلى مدارس أم كتاتيب يتلقون فيها القراءة والكتابة ومبادئ العلوم حتى إذا فتح العرب بلاد الفرس وجدوا أمامهم هذه النظم فنقلوها عنهم ، أم أن نظام الكتاتيب نظام إسلامى ابتكره المسلمون ؟

---

(٤) البلاذرى ص ٦٧ .

(٥) البلاذرى ص ٤٥٩ .

(٦) ابن أبى الحديد جـ ٤ ص ٤٥٩ .

كان الفرس أهل حضارة زاهرة يعلو مستواها بكثير عن الحضارة العربية . وكان العرب أهل بداوة لا نستطيع أن نصفهم بالحضارة . لذلك لما أخضع المسلمون الفرس والروم ، اضطروا إلى اقتباس نظمهم فى الإدارة والحضارة ، فكانت الدواوين تكتب بالفارسية أو الرومية .

وظلت الدواوين تكتب بغير اللغة العربية إلى أيام هشام فى الدولة الأموية . «وكان أكثر كتاب خراسان إذ ذاك مجوساً ، وكانت الحسابات بالفارسية : فكتب يوسف بن عمر وكان يتقلد العراق فى سنة أربع وعشرين ومائة إلى نصر ابن سيار كتاباً أنفذه مع رجل يعرف بسليمان الطيار يأمره ألا يستعين بأحد من أهل الشرك فى أعماله وكتابته»[٧] . ويتضح من هذه القصة أن صناعة الكتابة ظلت بالفارسية فى يد الفرس حتى الصدر الأول من المائة الثانية .

وقد ظلت الدواوين بالفارسية حتى عصر عبد الملك بن مروان . عن الجهشيارى : «ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذى كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجود الأموال بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك أحدهما بالرومية والآخر بالعربية . فجرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان»[٨] .

وليس غريباً أن تظل الدواوين فى أيدى كتبة الفرس باللغة الفارسية طول هذه المدة ، لأن العرب كانوا يجهلون هذه النظم الإدارية لبداوتهم الإدارية ، ولابد من فترة انتقال يتم فيها تعلم العرب هذه الصناعة ، وتعريب الفرس . ثم نسأل أكانت الكتابة عامة فى جميع الفرس أم خاصة بطبقة معينة ؟

الواضح من التاريخ أن نظام الطبقات كان شائعاً فى فارس : «وكان رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة فى خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد ممن فى غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عرفت بلبسته صناعته ، والطبقة التى هو فيها»[٩] .

(٧) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٦٧ .

(٨) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٨ .

(٩) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣ .

ويؤيد ما جاء عن شيوع نظام الطبقات ما نترجمه عن الأستاذ أكبر مظاهرى[١٠] حيث قال : «ويتعلم الطفل مهنة أبيه ، إذ كان النظام الاجتماعى فى إيران يقضى بتوزيع الناس فى طوائف فهم يتوارثون المهن عن آبائهم . وفى ذلك يقول الفردوسى : لم يسمع أحد أن صانع أحذية أصبح كاتباً . فالطفل يتبع مهنة أبيه ، فإذا كان زارعاً فإنه يعلّم ابنه الزراعة ، أو صانعاً فإنه يعلمه صنعته ، أو كاتباً فإنه يعلمه الكتابة والخط ، والكاهن يعلم ابنه العقائد المقدسة ، والجندى يهيئ ابنه لمعيشة الحرب»[١١] .

أما أبناء الأشراف فيتلقون طائفة من المعارف على أيدى مربٍّ أو اثنين ولا يذهبون إلى المدرسة الأولية التى تخصص لهم ، وفيها يتعلمون العلوم المقدسة والآداب والموسيقى والرياضة البدنية واستعمال السيف .

وإذا كان هناك تمييز فى التعليم المهنى والاجتماعى ، فالجميع متساوون فى شىء واحد هو التعليم الدينى[١٢] .

ويتعلم الطفل مبادئ الدين عن أبيه . فإذا لم يتسن للأب أن يعلمه لضيق الوقت فليرسله إلى أقرب معبد حيث توجد المدرسة ، ليتعلم القواعد الدينية ، والتاريخ المقدس ، والتقويم ، وأسماء الشهور والأيام ، والأدعية ، والواجبات الدينية .

وطريقة التعليم هى أسئلة وأجوبة ، وإليك نماذج منها :

أيها الطفل من تكون ؟ من أين جئنا وإلى أين نذهب ؟ أتنتسب إلى يزدان أم إلى أهرمن ؟ إلى خالق خير أم شرير ؟ ما الخير والشر ؟ . . . إلخ .

ويحفظ الطفل الإجابات عن هذه الأسئلة عن ظهر قلب ، وتفسر هذه الإجابات شيئاً فشيئاً بعد الاطلاع على أسرار الدين .

وتعنى الأم بطفلها حتى سن الخامسة ، فتعلمه الخير والشر[١٣] . ويهتم الإيرانى

---

(١٠) Aly Akbar. Mazaheri. La Famille Iranienne aux temps anti-islamiques Paris 1938.

(١١) ص ١٧٢ .

(١٢) ص ١٧٥ .

(١٣) ص ١٦٨ .

اهتماماً كبيراً بالتربية ، لذلك يعلم ابنه آداب السلوك ويبث فيه بعض التعاليم الخلقية ليصبح رجلاً شريفاً . وحينما يكبر الطفل يعلمه حرفة . ولا يعلم الأب ابنه شيئاً له غرض عملى .

ونستنتج من هذا أن التعليم فى فارس كان مقصوراً على طبقة معينة هى طبقة الكتّاب والأشراف ، أما عامة الشعب من زراع وصناع فعنايتهم بالمهنة . أما التعليم الدينى العام ، فلم يكن الغرض منه التعليم لذاته ، أو معرفة القراءة والكتابة ، بل تلقين أسرار الديانة الفارسية ، وهى ديانة ثنوية تخضع العالم لإلهين أحدهما للخير والثانى للشر . وكان الأطفال يتلقون هذه المبادئ فى داخل المعابد ، ولم تكن هناك مدارس منفصلة عنها . ولم يكن الأطفال يتلقون مبادئ القراءة والكتابة لأنها مخصوصة بطبقة الكتاب .

لهذا لم تعرف الفرس نظام الكتاتيب . لأن الكتّاب فى الإسلام مكان يتعلم فيه الصبيان الكتابة والقراءة إلى جانب القرآن الكريم ، على حين كانت الكتابة صناعة خاصة بطبقة معينة عند الفرس . والمدارس الدينية مختلفة فى نوعها عن الكتاتيب لأنها ملحقة بالمعابد ، وأساس التعليم فيها هو معرفة الطقوس الدينية ومزاولتها .

المدارس فى الشام ومصر :

ونلقى الآن إلى البلاد التى كانت خاضعة للروم ، وهى الشام ومصر لنرى أكان فيها نظام لتعليم الصبيان يشبه الكتاتيب . ونقصد بهذا النظام أنه عام لجميع أفراد الشعب ، وأنه منفصل عن المساجد ، وأن الصبيان كانوا يتعلمون فيه القراءة والكتابة .

فى الوقت الذى فتح فيه العرب هذه البلاد كانت الحضارة السائدة فيها مضطربة منقسمة على نفسها ، خاضعة لتيارات مختلفة متعارضة . فإلى جانب حضارتى الرومان واليونان الوثنيتين ، جاهدت المسيحية للقضاء عليهما ، ومع ذلك احتفظت المسيحية بكثير من تراث الرومان والإغريق .

ولما تدهورت الدولة الرومانية الغربية وعاصمتها روما ، غزا الجرمان روما ،

ولم تكن قبائل الجرمان على شيء من الحضارة . فهدموا المدن ، وذوت الحضارة وعفت آثارها ، وأصبحت الكتب نادرة ، وتم التدهور تدريجياً ، حتى إذا كان القرن السادس الميلادى انعدمت الثقافة وقبرت المدارس الرومانية . وكانت الحاجة ماسة إلى قوم مثقفين للقيام بشئون الحكومة . فصالت الكنيسة وحدها فى الميدان وقامت بالتعليم ، ولكنها قصرته على مقدار حاجتها منه[١٤] .

ومن أبرز أسباب سقوط الحضارة الرومانية الترف الذى ساد الحاكمين بعد ما أصابوا من أسلاب الدول المغلوبة على أمرها ، لذلك انصرفوا إلى الملاذ والاستمتاع بمباهج الدنيا ، وركنوا إلى حياة الكسل والترف . ومن قبل ذلك قضى الرومان على الحضارة الإغريقية بالسيف ، وانتقلت الثقافة اليونانية من أثينا إلى الإسكندرية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، وظلت زاهرة زمناً ثم تدهورت لما أصاب العالم من انحطاط ، حتى فتح العرب مصر.

ووجد الناس فى المسيحية الدين الذى يلتئم مع نزعات النفس الجديدة ، فهو دين يدعو إلى تطهير النفوس من الأدران ، وإلى الزهد فى الحياة المادية التى سئمها الناس .

ولكن المسيحية لما انتشرت أولاً فى الشرق ، ثم فى آسيا الصغرى والإسكندرية وأثينا ، اصطدم رجالها بعقول أهل الفلسفة الإغريقية الذين لا يقنعهم الإيمان المسيحى فحسب ، وإنما يريدون أن يفهموا الديانة فهماً عقلياً منظماً كما يفهمون النظم الفلسفية . من أجل ذلك اضطر قساومة المسيحيين إلى التسلّح بالأدلة العقلية العميقة للرد على انتقادات هؤلاء القوم ، وهذا هو السبب فى نشأة مدرسة الإسكندرية وغيرها للبحث فى أساس الديانة المسيحية[١٥] .

وفى أيام المسيحية الأولى انصرف المسيحيون إلى تطهير أنفسهم من أدران العالم الملىء بالشرور ، ولم يتصلوا بالحكومة على أى وجه ، كما لم يكن بين الكنيسة والدولة صلة . فلما قوى نفوذ الكنيسة وأصبحت دولة داخل الدولة ، برز فيها رجال

---

(١٤) Cubberly. History of Education p. 116.

(١٥) Cubberly, p. 93—94.

عرفوا بالدهاء السياسى فجعلوا للكنيسة نفوذاً مدنياً إلى جانب النفوذ الدينى .

ولم تعجب هذه السياسة كثيراً من المسيحيين الزاهدين فى النظر إلى الأمور الدنيوية والاتصال بالعالم المملوء بالآثام والشرور ، فانصرفوا إلى الصحراء والجبال والغابات ، واتخذوا من الكهوف والمغاور مأوى يحميهم من رذائل الناس . وتتلخص مبادئهم فى المعيشة الأخوية ، والزهد عن العالم والفقر والعفة والطاعة وشغل البدن بأشق الأعمال حتى تصفو الروح وتسمو ويعيش الأعضاء فى خلوة فلا يجتمعون إلا عند تناول الطعام والدعاء .

هذا هو بدء الرهبنة فى الشرق ، وانتشرت منها إلى الغرب فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، وبلغت الأوج فى القرن الخامس[١٦] .

والرهبنة هى الجانب المتطرف فى الدين المسيحى .

وهى رد فعل لحياة الترف والاستمتاع التى سادت فى ذلك العصر .

هذا ماكان من شأن المسيحية فى الشرق ، تسلح بعض رجالها بعلوم اليونان والرومان للدفاع عن مبادئ العقيدة المسيحية ، ونزل البعض الآخر إلى ميدان السياسة لتعليم المذهب المسيحى الذى قدر له الانتصار حتى أصبح ديناً رسمياً للدولتين ، واعتصم فريق منهم بالزهد والرهبنة فى الصوامع والأديرة .

ونشأ فى الغرب صراع بين المسيحية وبين الشعوب المتبربرة ، تغلبت فيه المسيحية كما تغلبت فى الشرق . ولكن الشعوب الجرمانية كانت فتية مملوءة بالحياة ، طافحة بالطموح ، فكيف قبلت المسيحية التى تنادى بالحرمان والزهد ؟

فى القرون الوسطى تناقض كبير بين الحياة الواقعية التى يقبل فيها الناس على اللذات ، وبين الحياة المثالية التى تصورها الأخلاق المسيحية بما فيها من تضحية وزهد وقسوة فى المعيشة وتقييد لأسباب الحياة .

ومع ذلك فهناك جانب فى المسيحية اتفق مع مطامع المسيحيين . فهو دين العامة والبسطاء والفقراء . وقد سمت المسيحية بفضيلة التواضع ونشدت بساطة

(١٦) Cubberly. p. 98—100.

القلب والعقل . ولما كان الجرمان شعباً فى دور الطفولة فهم أهل بساطة وتواضع ، وهم أيضاً فقراء لأنهم كانوا يعيشون عيشة البداوة ، لذلك قبلوا مع السرور هذا المذهب الجديد الذى يمجد الفقر والبساطة .

وقد حارب الجرمانيون الحضارة الوثنية الرومانية كما حاربها المسيحيون . وهذا يفسّر لنا المودّة التى توثقت عراها بين الكنيسة والمتبربرين ، وكيف وجدت المسيحية أرضاً خصبة بين الشعوب الجرمانية . والسر فى هذا يرجع إلى أن مبادئ المسيحية حققت آمالهم ، ووجدوا فيها الراحة الخلقية التى لم يعثروا عليها فى مكان آخر .

ومن ناحية أخرى كانت أصول المسيحية ترجع إلى جذور يونانية ورومانية لم يكن من السهل التخلص منها . ولا يغيب عن بالنا أن المسيحية نشأت ونمت فى العالم الرومانى ، فحملت معها برغم إرادتها كثيراً من حضارة الرومان ووثنيتهم . وكانت لغة المسيحيين هى اللغة اللاتينية فى الغرب ، واليونانية ثم السريانية فى الشرق .

وكانت غاية المسيحية الخلاص بالإنسان من الإثم والنجاة به من الرذيلة ، وقد خشيت إقبال الناس على دروس آداب الرومان واليونان وفنونهم وعلومهم ، وهى ثقافة فى مجموعها لا دينية قد تصرف الناس عن الإيمان الصحيح .

وقد عجزت الكنيسة عن التخلص من ثقافة الرومان واليونان ، لأن اللغة اللاتينية والإغريقية هما اللغتان المقدستان اللتان صبغت بهما عقائد الدين .

وأين يتعلم الناس اللغة اللاتينية واليونانية إن لم يتجهوا نحو آداب الرومان واليونان . وديانة الرومان واليونان شعائر عملية ممتزجة بالأساطير ، على عكس المسيحية القائمة على نظام يتركب من مجموعة من العقائد . وليس المسيحى مسيحيًّا لأنه يقيم بعض الشعائر الدينية فحسب ، بل لأنه يؤمن بعقيدة خاصة ويعتقد فى آراء معينة .

وسبيل تعلم الشعائر الدينية قد يكتفى فيه بالقليل من التدريب ، أما اعتناق الآراء فلا يتم إلا بواسطة التعليم سواء اتجه هذا التعليم إلى العقل أم إلى القلب . لهذا السبب اصطنعت المسيحية منذ نشأتها طريقة التعليم والوعظ . ولكن التعليم لابد أن

يستند إلى أساس من الثقافة ، ولم تكن هناك ثقافة إلا ثقافة الرومان واليونان اللاتينيتين ، فاضطرت المسيحية إلى اصطناعها . ثم إن المعلم أو الواعظ يحتاج إلى دلاقة اللسان وسحر البيان وقوة الحجة والإقناع والبصر بأحوال الناس ، والمعرفة بتاريخ البشر . ولم تكن هذه المعارف المختلفة موجودة إلا فى آثار الأقدمين . وكانت حاجة المسيحيين شديدة إلى هذه الثقافة لفهم الكتابات المقدسة فهماً جيداً ، فلابد من التبحر فى اللغة والتمكن منها ، ولابد من معرفة التاريخ لتحديد الحوادث فى سجل الزمان . وكانت الحاجة إلى البلاغة أشد لأنها سلاح المؤمن الذى يدفع به أخطاء الرذيلة .

تلك هى الضرورات التى ألجأت الكنيسة إلى افتتاح المدارس لتعليم هذه الألوان المختلفة من الثقافة .

ونشأت باكورة هذه المدارس فى أحضان الكنائس والأديرة . وكان الطلبة ينفقون حياتهم منذ الصغر فى الأديرة لإعدادهم لحياة الكهنوت . وهى حياة زهد وتقشف يسودها طابع الروح المسيحى .

وتمتاز هذه المعيشة المسيحية عن تصوّف الهنود ، فالبوذية ترمى إلى فناء الفرد ليصل إلى معرفة الحقيقة الكلية . أما المسيحى فلم يكن يسعى إلى خلاص نفسه فقط ، بل إلى خلاص الإنسانية كلها . لهذا السبب لم ينصرف الرهبان فى عزلتهم إلى التأمل فقط ، بل كانوا ألسنة تذيع العقيدة وتبشر بالدين . ولهذا السبب أيضاً ظهرت المدارس فى داخل الأديرة تهيئ الطلبة إلى معيشة الدير .

ولم يجد المسيحيون حرجاً فى قبول جميع الصبيان من كل طبقة وصناعة يبثون فيهم الدين والعلم .

هذه المدارس الكنسيّة هى الخلية الأولى التى تفرع منها بنيان التعليم فى أوربا فنشأت عنها الجامعات والكليات . ومن هذا يتضح لنا السر فى احتضان الكنيسة للمدارس ، وفى خضوع التعليم للدين .

ولم يخل المنهج الذى كان متبعاً فى تلك المدارس من تناقض فى نظامه ، فهناك علوم مدنية تدرس إلى جانب مبادئ الدين . لأن عنصر الدين مستمد من

المسيحية ، والجانب المدنى مشتق من الحضارة القديمة .

والجديد الذى جاء مع هذه المدارس المسيحية هو لزوم الطلبة أستاذاً بعينه ومكاناً بعينه . ذلك أن الطالب فى الأزمنة القديمة كان يتلقى العلم على مدرسين مختلفين لارابطة بينهم ، فهو يذهب إلى معلّم اللغة يتلقى عليه قواعد النحو والبيان ، وإلى عازف القيثارة يتعلم منه الموسيقى ، وإلى معلّم الخطابة يتعلم فن الفصاحة وهكذا . لذلك كان الطالب يحشد فنوناً من المعرفة لا صلة بينها .

أما المدارس المسيحية فلأنها انتظمت فى مكان ثابت واحد فإنها خضعت لتأثير واحد ، واتجهت وجهة خلقية واحدة .

ومما يميز هذه المدارس أيضاً الصلة الدائمة بين الأستاذ وتلاميذه ، لأن معيشة التلاميذ كانت معيشة رهبنة داخل الدير .

ولما كان التلميذ فى اليونان والرومان يتلقى علومه على مدرسين متباينين لاتجمعهم صلة ، وكان كل مدرس يقوم بالتعليم فى داره على طريقته الخاصة ، لهذا تنافرت المعرفة فى ذهن التلاميذ ولم تتجه إلى هدف واحد . فواحد يعلمه القراءة ، وآخر يقوّم لسانه ، وثالث يلقنه الموسيقى ، ورابع آداب السلوك ، بينما المدرسة المسيحية تتعهد التلميذ تعهداً كاملاً . ولم يكن التلميذ فى حاجة إلى مبارحة المدرسة ، فهو يجد فيها كل مايطلب ، ويقضى فيها حياته ، يأكل وينام ويؤدى طقوسه الدينية . وهذا النظام الداخلى من أخص ميزات هذه المدارس الكنسية . بهذا خضع التلميذ لتأثير واحد وانصرف نحو تيار واحد .

وكان الغرض من التعليم قديماً تزويد الأطفال معلومات معينة ، الغاية منها أن تكون زينة يتحلى بها الطفل ليرفع منزلته الشخصية بين أترابه ، كما كان الحال فى روما والمدن الإغريقية . وكان من السهل أن يتلقى الطفل هذه المعلومات أو العادات من مدرسين مختلفين ، إذ كان الغرض أن يتزود الطفل بحلية خارجية ، لا أن تطبع شخصيته فى أعماقها أما المسيحية فعلى العكس من ذلك ، فطنت إلى أن إعداد المسيحى الصحيح لايتم بتزويده بعض الآراء أو العادات ، بل بطبعه بطابع عام يصوغ العقل والإرادة فيرى العالم فى ضوء هذه التعاليم . فالمسيحية استعداد نفسانى

لاينشأ إلا بتربية خاصة . ولا يتوصل إلى هذه التربية إلا إذا عاش الأطفال فى بيئة اجتماعية واحدة يلازمونها زمناً طويلاً ، حتى تنزل منهم التعاليم المنشودة منزلة الطبع .. وهذا هو السر فى معيشة التلاميذ معيشة داخلية واحدة[١٧] .

* * *

ونخرج من هذا العرض بالنتائج الآتية :

١ – حلت المدارس المسيحية مكان التعليم اليونانى والرومانى وذلك بعد جهاد طويل .

٢ – كانت المدارس الكنسيّة ملحقة بالأديرة والكنائس والمعيشة فيها داخلية .

٣ – الغرض من هذا التعليم هو التأثير فى الشخصية ، وطبعها بالطابع المسيحى ، وإعداد التلاميذ لحياة الرهبنة .

٤ – لم تكن هذه المدارس عامة لجميع أفراد الشعب ، بل اقتصرت على طبقة الكهنوت . ومن الواضح أن هذا النوع من التعليم يختلف عن الكتاتيب الإسلامية ؛ فالكتاتيب الإسلامية عامة لجميع أفراد الشعب ، ولم يكن من الضرورى وجودها بالمساجد ، ولم يكن الصبيان يعيشون فيها معيشة داخلية . ولم تكن صلة معلم الكتّاب بالصبيان صلة الراهب بتلاميذه يقتحم شخصياتهم ليطبعها بطابع المسيحية . ذلك أن معلم الكتاب ملقن ومرشد وليس واعظاً يسعى إلى بث آراء معينة ، فهو يعلمهم القراءة والكتابة . ويحفظهم القرآن الكريم ، وهو الجزء الأساسى من تعليمه .

ولو أن المسلمين أخذوا نظام الكتاتيب عن الفرس والروم . ونقلوها عنهم ، لظهرت منذ بدأت الدعوة الإسلامية . ولكن الواقع يدلنا على أنها لم تظهر إلا بعد تمام الفتوحات ، وبعد دخول الناس فى الإسلام . من أجل ذلك قلنا إنها قد نمت وتطورت مع نمو الإسلام وانتشاره .

أما فى عهد النبى فكان تعليم الدين الإسلامى شاملاً للجميع ، صبياناً ورجالاً ونساء وكان الغرض منه أن يحفظ الناس شيئاً من القرآن ، وأن يتعلموا مايلزمهم فى

(١٧) L'Evolution Pédagogique en France. Durkheim Ch. I & II

العبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر الفرائض الإسلامية . واتبع المسلمون كافة السبل فى الوصول إلى نشر دعوتهم فعلّموا فى دورهم ، وفى المساجد ، وفى كل مكان ولم يفتهم الحث على تعلّم الكتابة .

ولما انقضى هذا الدور الأول فى نشر الدعوة بكافة الطرق ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وكثر عدد المسلمين ، واعتنقت غالبية السكان الدين الإسلامى ، انصرفوا عن نشر الدين إلى النظر فى أمور المعاش وإلى تنظيم الدين وضمان العبادة الصحيحة . ويقتضى النظام الاجتماعى أن يكون البدء فى تعليم الأجيال عن طريق تربية الأطفال حتى إذا شبوا أصبحوا مطبوعين بطابع الجيل الجديد .

وقد تطوع المسلمون الأوائل بالتعليم بدافع الروح الجديد . فلما انتشر الإسلام تعذر أن يقوم التعليم على التطوع ، وظهرت صناعة التعليم ، وتناول المعلمون الأجر ، وأفتى الفقهاء بجواز ذلك .

وكان بعض المعلمين يقوم بمهمته فى المساجد ، ولكن عبث الصبيان الصغار الذين لايتحفظون من النجاسة جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان فى المسجد ، فظهرت الكتاتيب منفصلة عن المساجد ، وأصبحت خاصة بتعليم الصبيان .